

الزُّهُد.. ثقافة ووعي



الزُّهُدُ في الدُّنْيَا، مقامٌ شريفٌ من مقامات عباد الله السالكين مسالك الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، رُوِيَ عن النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «ما عُبد الله بشيء أفضل من الزُّهُد في الدُّنْيَا». وحقيقة الزُّهُد هي الانصراف عن الشيء إلى ما هو خيرٌ منه، ولا بد أن يكون الانصراف والرغبة عن الشيء المحبَّبِ حتى تُسْمَى الرغبة عن الشيء زهداً، فالزاهد الصادق دائم الأُنْس بالله تعالى، وتغلب عليه الطاعة، بالإضافة إلى أن العبد الزاهد يستوي عنده دَامُهُ ومادِحُهُ. والزاهد الحق لا يفرح بوجوده، ولا يحزن على مفقوده، قال مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام): «الزُّهُدُ كَلَامٌ بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه، لَكَيْفَ لَا تَأْسُوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي، وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي، فَقَدْ أَخَذَ الزُّهُدَ بِطَرَفَيْهِ». وقال (عليه السلام): «طوبى للراغبين في الآخرة الزاهدين في الدُّنْيَا، أولئك قوم اتَّخَذُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ بِسَاطِطاً، وَتَرَابِهَا فَرَاشاً، وَمَاءُهَا طَهُوراً، وَالْقُرْآنَ شِعَاراً، وَالدُّعَاءَ دُثَاراً، ثُمَّ قَرَضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْرِيباً عَلَى مَنَاجِ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ (عليه السلام)».

إنَّ الزُّهُدَ من القيم الإسلامية والخلق الإنسانية الرفيعة التي تبرز أصالة الإنسان في هذه الحياة، وتدلُّ على مدى تجذُّر الإيمان والأخلاق في نفسه وقلبه وعقله، ولهذا الزُّهُدُ ركائز يتقوم بها ويتميز، فالزُّهُدُ يقوم على قِصر الأمل، فلا ينصت الإنسان إلى صوت نفسه التي تزيِّن له الحياة، وتغريه بالأمانى المعسولة، وتمنِّيه بطول العمر وكأنَّه إنسان خالد في الدُّنْيَا. كما يقوم الزُّهُدُ على شكر النِّعم، بأن يطيع الإنسان ربه بالعمل لا بالقول فحسب، وأن يعيش الحمد والشُّكر، فلا يقنط ويأس في الضراء، ولا يبطر في السراء، بل يتذكَّر الله باستمرار، وأنَّه هو المنعم والرزاق، ووحده يستحقُّ الحمد والدُّعَاءَ والشُّكْرَ. كما يقوم الزُّهُدُ على التورُّع عن محارم الله تعالى، فيكفُّ المرء نفسه عمَّا حرم الله، ويقف عند الشُّبُهَات، ويعيش الورع في نفسه في كلِّ الظروف والأحوال.

إنَّ الله تعالى لم يدع للإنسان من عذرٍ يتعلَّل به، فقد منحه نور العقل والقدرة والإرادة، وأوضح له سبيل الهداية من الكُتُب المنزلة ومن بعث الرُّسُل، وكلُّ ذلك كان بمثابة الحجَّة الكاملة على مَنْ تسوَّل له نفسه أن يتخطَّى حدود الله ويعتدي على عباده وعلى الحياة. يقول أمير المؤمنين علي (عليه

السلام): «أيُّها الناس، الزهادة قِصَرُ الأمل، والشُّكْرُ عندَ الذِّمِّ عم، والتورُّعُ عن محارمِ الله، فإن عَزَبَ ذلكَ عنكم، فلا يغلبُ الحرامُ صبركم، ولا تنسوا عندَ الذِّمِّ عم شكركم، فقد أَعَذَرَ اللهُ إليكم بحجج مسفرةٍ ظاهرة، وكُتِبَ بارزة العذر واضحة». نتعلِّمُ من كلام الإمام (عليه السلام)، كي نربي قيمةَ الزُّهد في نفوسنا ونفوس أبنائنا، بأن نطيع الله بالعمل الصالح النافع، ولا نتعدى حدوده، وأن نعيش الشُّكْرَ في كلِّ الأحوال، وأن نتورَّع عمَّا حرَّم اللهُ، وأن نقبل على ما دعانا إليه من كلم طيِّبٍ وعمل صالح يرفعه.

ومن جميل ما سمعنا عن الزُّهد، قال الإمام عليٌّ (عليه السلام): «رَحِمَ اللهُ امرأَةً قصَّرت الأمل، وبأدب الأجل، واغتتم المهل، وتزوَّدت من العمل». وقال سلمان المحمَّدي (رضي اللهُ عنه): «ثلاث أعجبتني حتى أضحكتنني: مؤمِّلُ الدنيا والموت يطلبه، وغافل لا يغفل عنه، وضاحك ملاء فيه لا يدري أمسخت ربه أو مرضيه». ودخل رجل على أبي ذر الغفاري (رضي اللهُ عنه)، فجعل يُقلِّبُ بصره في بيته، فقال: «يا أبا ذر! أين متاعكم؟ فقال أبو ذر: إنَّ لنا بيتاً نوجِّه إليه صالح متاعنا، فقال الرجل: إنَّه لا يدرك من متاع ما دمت هاهنا، فقال أبو ذر: إنَّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه»، فأبو ذر غريب في الدنيا يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَثُ وحده، وهو من الجنَّة، وإلى الجنَّة:

كم منزل للمرء يألفه الفتد***وحنينه أبداً لأوَّل منزل.